نظرات فلسفية :

« الذات » ... !

الأستاذ زكريا ابراهيم

أجل « الذات » ! صاحبة الجلالة « الذات » ! حولها تدور كل موضوعات الفلسفة ، ونحوها يتجه كل بحث إنسانى . هى المركز فى دائرة الوجود ، وهى المحور فى كرة الإنسان ! غفل عنها الفلاسفة حيناً ، ثم اهتدوا إليها ، فاهتدوا إلى نفوسهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت هى نقطة البدء ونقطة الانتهاء .

أىّ موضوع لم يتطرّقْ إليه شك المفكرين ، وأية حقيقة لم تَرْقَ إليها شُبهات الفلاسفة ؟ لقد امتدّوا بشكّهم إلى كل موضوع ، ونشروا شُبهاتهم حول كل حقيقة ؛ أما « الذات » فقد بقيت دون متناول الشك ، وفوق كل شبهة ! أستغفر الله ، بل « ذاتى » هى وحدها التى لا سبيل لى إلى أن أشكّ فيها ، لأن بينى وبينك هوّة لا يمكن عبورها ! فكل منّا عالم مُغْلَق على ذاته ، وذاتك نفسها هى بالنسبة إلىّ « موضوع » كسائر الموضوعات الخارجية ! أما الوجود فلا علم لى به إلّا عن طريق شعورى الخاص ؛ وهذا الشعور هو الحقيقة الوحيدة المباشرة التى يمكن أن تدركها « الذات » . فالذات هى كل شىء بالنسبة إلى صاحبها ، وكل حقيقة لا بدّ أن تكون موسومة بطابعها .

إننا لا نتلقى الحقائق التى نؤمن بها من الخارج ، بل نصنعها فى الأعماق الباطنة من نفوسنا . وكل حقيقة لا تنبثق من ثنايا النفس ، لا بد أن تكون زائفة مموّهة . فالحقيقة من شأنها دائماً أن تكون « ذاتية » ؛ وحتى إذا لم تنبع الحقيقة من أبعد أغوار النفس ، فإنها لا بد أن تمرّ على « الرقيب » الذى يطبعها بالطابع الذاتى الخاص ! ولعلّ هذا هو المعنى الذى قصد إليه جيته حين قال : « إنّ ما ورثته عن آبائك وأجدادك ، لابدّ لك أن تحصّله بنفسك حتى يصبح مِلكاً لك » . فالإنسان لا يفهم تماماً إلا ما فكر فيه بنفسه ، وهو لا يؤمن إيماناً قوياً إلا بما هدا إليه عقله . أما ما قاله الآخرون ، أو ما رُوِىَ عن السابقين بالضرب والقتل إن هى حاولت التحدث إليه ، ودعوها مرة لتقدم القهوة إلى ضيوف أبيها ، وإذا بالضيوف أطباء جاءوا ليفحصوها ، ولما تبين لأهلها أنها عذراء زوجوها من ابن عمها الذى تكرهه ، وكان عاجزاً فى حياته الجنسية ، والتحق بالجيش بعد شهر من زواجه ، فأحبت الفتاة أن تنفصل عنه ، وقدّمت شكواها إلى المحكمة الكنسية ، فحولت هذه أوراق القضية إلى روما ، وانقضت ثلاث سنوات والفتاة تنتظر النتيجة ، فكانت مقيدة بزوج لا تشعر بكيانه ، وكان أهلها يدفعونها إلى الخدمة فى البيوت لتعول نفسها ، وكانوا يهينونها ، ويسمعونها لاذع الكلام ، فضاقت ذرعاً بهذه الحياة ، وعقدت النية على أن تفر إلى المدينة لتمتهن التمثيل عَلَّها تأخذ فيه دور المآسى ! ... ولتحترف الغناء عَلَّها تبث فيه ما فى نفسها من لوعة وألم ! ...

استمعتُ إلى مأساة سلمى ، ثم أقنعتها بضرورة العودة إلى ذويها ... وبعد مضى سنة علمت أنها فرّت ثانية من بيت أبيها ، وأحبت شابا مسلما وسألته أن يتزوجها .

فقال لها — لكننى أريدا أن تعتنق الدين الإسلامى ؟

قالت — أسلمت ! ...

قال — ولا أريدك أن تكونى سافرة .

قالت — سأتشح بالسواد من أجلك ...

قال — ولا أريدك أن تخرجى من البيت .

قالت — لن أخرج من البيت إلا إلى مثواى الأخير ! ...

وأعلنت إسلامها فى الجريدة الرسمية ، وانزوت فى بيتها الجديد ... فقد مثّلت دورها ... وغنّت أغنيتها ، ولا ينغص عليها حياتها إلا أهلها الأولون الذين يحاولون عبثاً الوصول إليها فجاءها شقيقها مرة كبائع زيت ... وجاءها عمها كبائع أقمشة متجول ... وجاءتها شقيقتها كبائعة زهور ... وآخر من جاءها أبوها فكان يقرع باب الدار قرعا عنيفاً ويصرخ قائلا : سلمى سلمى ... أبشرى يا ابنتى ... أبشرى ... لقد جاءك الطلاق من روما ! ...

نجاتى صدقى

فهذا ما لا يمكن أن يفهمه المرء جيداً ، إلا إذا دلّته عليه نفسه ، وأثبته له عقله . فكل حقيقة مهما كان من انتشارها وسيادتها ، لا بد أن تهبط إلى الأغوار السحيقة التي تصنع فيها الحقائق ، حتى تتلقى من « الذات » اعترافا بصحتها ، وإقراراً بصدقها . ولهذا فان كل إيمان لا بد أن يكون « فردياً » حتى يكون إيماناً حقيقياً ...

ولكن ، هل جاءت قيمة « الذات » من أنها صانعة « الحقيقة » فحسب ؟ كلا ، بل هي أيضاً خالقة « الشخصية » . ففي أبعد أغوار الذات ، تكمن قوى الفرد التي تحدّد شخصيته وتعيّن سلوكه في الحياة . وهذه القوى الكامنة التي لا تظهر بوضوح في «الطبقة السطحية» من الذات ، بل تنتشر في المشارب الخفيّة منها ، مكوّنة وجودها الفرديّ الخاص بمعناه الحقيق .

وكثيراً ما تكون هذه القوى الكامنة التي تكوّن جوهر الذات مجهولة لدينا ، فتجيء أفعالنا مفاجئة للآخرين . وقد نزعم أن إمكانيّاتنا قد استُوعبت واستُهلكت ، فاذا بنا نجد أن من الممكن أن ينبثق من أعماق نفوسنا شيء جديد . ولهذا فإن من الخطأ البالغ أن نحكم على نفوسنا بأنها ليست أهلا لهذا العمل أو ذاك ، لأن التجربة كثيراً ما تظهرنا على أن في استطاعتنا أن نعمل ما كنا نعتقد أن ليس لنا عليه يدان !

وليست الحياة الفردية سوى تحقيق مستمر لكل القيم المتضمّنة على شكل قوى أو إمكانيّات في ثنايا الذات . وتحويل القوة إلى فعل هو جوهر الحياة الإنسانية ومعناها الأوحد . وهذا التوتر الذي يوجد بين ما حُقّق ، وما لا بد أن يُحقّق ، هو القوة المحرّكة الأولى في الحياة الإنسانية . فإذا حقق إنسان كل ما لديه من قوى مدخرة ، وإمكانيات كامنة في أعماق نفسه بحيث لم تعد لديه قوة جديدة يمكن أن يحققها ، فلا بدّ أن تصل حياته إلى نهايتها ؛ لأن ذاته أقفرت ، وإقفار الذات معناه الموت .

ولكن ما دام المرء حياً ، فلن يكون في وسع أحد أن يقول عنه ، ولن يكون في وسعه هو أن يقول عن نفسه ، إنّ شيئاً جديداً لا يمكن أن يُنتظر منه ! فطالما كانت الذات حيّة خصبة ، كان لابد لها أن تُزهر ! وقد تعرض للذات أحداث بسيطة ، فتكون مدعاة لظهور أمور جديدة ، أو إيقاظ أفكار كامنة ، أو تولّد معان لم تكن منتظرة !

أجل ! إنها الذات ؛ والذات عالم يموج بالأفكار والمعاني ؛ ومن أعماق هذا العالم الصاخب تنبثق الأفكار العظيمة ، والمعاني الجليلة ! فهل من حرج على الفلاسفة إذا لخصوا رسالتهم في عبارة موجزة ، فقالوا على لسان شيخهم سقراط : « أيها الإنسان : اعرف نفسك » ! ؟

إن « الذات » هي الحقيقة الأولى والأخيرة ، فليس بدْعاً أن تؤكد الذات نفسها بكل قوة على لسان شوبنهور قائلة : « إن العالم من تصوّري » وهل يقوم للعالم الخارجي وجود بدون الذات المفكرة ، التي تخلع عليه معنى من عندها ؟. إنها الذات وكفى !

(مصر الجديدة) زكريا إبراهيم

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

وزارة الأوقاف

تقبل العطاءات بقسم الحسابات والمخازن لغاية ظهر يوم ٦ / ٥ / ١٩٤٦ عن أعمال الإنشائيات البنائية والصيانة والترميمات الاعتيادية والصحية بالأطيان الزراعية التابعة لتفاتيش أوقاف القبه . القليوبية . الشرقية . المحلة . طنطا . المنتزه الجيزة . بيا الفيوم . مغاغة . المنيا . أسيوط قنا وذلك خلال سنة ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ المالية على أساس قائمتي الأثمان الاعتيادية والصحية المعتدلتين لسنة ٤٦ و ٤٧ والموجودتين بقسم الري والميكانيكا بالتفاتيش المذكورة للاطلاع عليهما ويمكن الحصول على شروط العطاء بمائتي مليم من خزينة الوزارة وكل عطاء غير مصحوب بتأمين إبتدائي عشرة جنيهات لا يلتفت إليه والوزارة حرة في قبول أو رفض أي عطاء بدون إبداء الأسباب . ٤١٣